

معاقبة النفس

موعظة في توبيخ النفس ولومها
للإمام الغزالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

للنشر - والتحقيق - والتوزيع
شابع المبركة - أنام بحملة بنزين النعاون
ت ٣٢١٠٨٧١ ص ٠ ب ٤٧٧

كتاب قد حوى درراً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً حقوق الطبع محفوظة
لِلناشر

دار الصحابة للتراث بطنطا
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .
المراسلات / دار الصحابة للتراث بطنطا
ش المديرية بجوار محطة بنزين التعاون
ص ب / ٤٧٧ .
ت : ٣٣١٥٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على رسوله الذى
اصطفى ﷺ .

أخى المسلم : راقب نفسك ولاحظها فى أقوالها وأعمالها ،
وحاسب نفسك قبل أن تحاسب وزن عملك قبل أن يوزن
عليك وراجعها حين تنحرف ، أو تهمل بشيء من الانحراف
لتعيدها إلى الصراط ، وتقيمها عليه ، وتلزمها به وتعاتبها إن
سعت بطيئة إلى الخير . لتفجر بها ينابيع كوامن الخير والبركة .
وهكذا .

وبذلك تكون قد حاسبت نفسك ونصبت من نفسك
قاضياً وحارساً يقظاً حذراً تمنعها من السوء وتدفعها إلى الطيب
من القول والعمل .

واعلم أخى الحبيب :

أن لومك لنفسك ومحاسبتها لا تعنى مجرد المعاتبة واللوم
فكن مثل التاجر الذى يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى
يتجر فيه ، ثم يحاسبه .

فما بالك بتجارة رأس مالها المحاسبة وربحها الفردوس
الأعلى ، فتدقيق الحساب مع النفس أهم بكثير من تدقيقه فى
أرباح الدنيا .

أخى : ألا تجد نفسك تلوم وتقسو فى الحكم وتحصى على
غيرك كل صغيرة وكبيرة خاصة إذا كنت مسؤولاً ؟ فنفسك
أولى أن تعاتبها وتُحصى عليها وتؤدبها .

أخى لاتنسَ

أن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها
فكل يوم يمر لا يأتى مثله ، ما تكسبه اليوم رصيد لك غداً
هاهو الإمام الغزالي يصحبنا ويقدم لنا الدواء لمعابة النفس .

أبو حذيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم (١) أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أماراة بالسوء ميالة إلى الشر فرّارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر (٢) إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن ذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبه والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاببتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك قال تعالى ﴿ و ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [سورة الذاريات / ٥٥] وسيله أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعذر بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها :

(١) بداية نص كلام الغزالي من كتابه الإحياء [٣٨٠ / ٤] .

(٢) الغمر : الغلبة

» يا نفس ...

ما أعظم جهلك . تدعين الحكمة والذكاء والفتنة ، وأنت
أشد الناس غباوة وحمقا .

أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار . وأنت صائرة إلى
إحدهما على القرب (١) ؟

فما لك تفرحين و تضحكين . وتشتغلين باللهو . وأنت
مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ؟ . وعساك اليوم تختطفين
أو غدا . فأراك ترين الموت بعيدا . ويراه الله قريبا .

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما
ليس بآت ؟ .

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن
غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ،
ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في
نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون
الشباب . ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس

(١) لأن العمر محدود مهما طال فمواعده قريب .

يمكن أن يكون فيه الموت فجأة . فإن لم يكن الموت فجأة
فيكون المرض فجأة . ثم يفضى إلى الموت .

فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب .
أما تدبرين قوله تعالى ﴿ اقترِبْ لِلنَّاسِ حَسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفلةٍ
معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه
وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾ ؟ ... [الأنبياء / ١]

ويحك يا نفس ! إن كانت جرائتك على معصية الله
لاعتقادك أن الله لا يراك ؛ فما أعظم كفرك وإن كان مع
علمك باطلاعه عليك ؛ فما أشد وقاحتك وأقل حيائك ! .

ويحك يا نفس ! . لو واجهك عبد من عبيدك . بل أخ من
إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه .
ومقتك له (١) ، فبأى جسارة (٢) تتعرضين لمقت الله
وغضبه . وشديد عقابه ؟ . أفظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات
هيهات . جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه .
فاحتبسى ساعة فى الشمس . أو فى بيت الحمام (٣) . أو قربى
إصبعك من النار . ليتبين لك قدر طاقتك .

(١) وبغضك له . (٢) شجاعة . (٣) دورة المياه .

أم تغترين بكرم الله وفضله . واستغنائك عن طاعتك
وعبادتك . فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات
دنياك ؟ . فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ، ولا
تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من
شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم . فما لك
تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ؟ .

فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز .
أو يسخر عبدا من عبيده ، فيحمل إليك حاجتك من غير سعي
منك ولا طلب ؟ .

أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت
أن سنة الله لا تبدل لها . وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن
ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يا نفس ! . ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة .
فإنك تدعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك . ألم يقل
لك سيدك ومولاك : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله
زرقها ﴾ [هود / ٦] وقال في أمر الآخرة :

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم / ٣٩] .

فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعى فيها ،
فكذبت به بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين (١) على طلبها تكالب
المدهوش المستهتر (٢) ، وكل أمر الآخرة إلى سعيك ،
فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر . ما هذا من علامات
الإيمان .

لو كان الإيمان باللسان ، فلم كان المنافقون فى الدرك
الأسفل من النار ؟ !

ويحك يا نفس ! . كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب . وتظن
أنك إذا مت انفلت وتخلصت . هيهات (٣) . أتحسبين أنك
تتركين سدى (٤) ؟ .

ألم تكونى نطفة من مئى يمى (٥) ثم كنت علقة فخلق
فسوى ؟ ! ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ ؟
[القيامة / ٤٠] فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك

(١) من شدة الحرص على الدنيا .

(٢) المدهوش : الذى ذهب عقله ، والمستهتر : المولع بالشئ .

(٣) كلمة تقال : لما يصعب مناله .

(٤) بلا حساب ولا عقاب .

(٥) وهو ما يتكون منه الجنى .

وأجهلك . أما تتفكرين أنه مماذا خلقتك ؟ . من نطفة خلقتك (١) فقد رك . ثم السبيل يسرك . ثم أماتك فأقبرك . أفتكذبينه في قوله : ثم إذا شاء أنشرك ؟ .

فإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرک ؟ . ولو أن يهودياً أخبرك في ألد أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه . أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة ، أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس (٢) وتخمين وظن ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟ ! .

والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال ، من غير مطالبة له بدليل وبرهان ، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ .

أم صار حر جهنم ، وأغلالها وأنكالها (٣) . وزقومها ومقامعها ، وصديدها وسمومها ، وأفاعيها وعقاربها ، أحقر

(١) ماء التناسل من الرجل والمرأة . (٢) الظن والتخمين .

(٣) القيد الشديد

عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ .

ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهايم حالك
لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك !!

فإن كنت يا نفس ، قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ،
فمالك تسوفين (١) العمل والموت لك بالمرصاد . ولعله
يختطفك من غير مهلة . فبماذا أمنت استعجال الأجل ؟ وهبك
أنت وعدت بالإمهال مائة سنة . أفتظنين أن من يطعم الدابة في
حضيض العقبة (٢) يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ .

إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً
بطالاً (٣) ، يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى
وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما

(١) التسويف : تأجيل الشيء والمماطلة فيه .

(٢) العقبة : الطريق غير الممهّد الوعر الخاص بالجبال فلا حياة فيه ولا

مرعى .

(٣) فلا عمل له والبطال صاحب الباطل .

يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه ، اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى ! .

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلى ، فلعل اليوم آخر عمرك ، فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ؟ .

هل له سبب إلا عجزك من مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ .

أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ .

هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه . فلا تكون الجنة قط إلا ومحفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين : غداً غداً ؟ .

فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ؟ . أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس . لا بل تعجزين عنه اليوم . ، فأنت غداً عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة

كالشجرة الراسخة التى تعبّد العبد (١) بقلعها ، فإذا عجز العبد
عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة
وهو شاب قوى . فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول
المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ،
فما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل
من العناء رياضة الهرم . ومن التعذيب تهذيب الذيب ،
والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان
لم يقبل ذلك .

فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة ،
وتركّنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة
تزيد على هذه حماقة ؟ .

ولعلك تقولين : ما يمنغنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة
الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد
غباوتك ، وأقبح اعتذارك .

(١) وهو أن يؤجر العبد باقتلاعها ومأمور من الله بذلك

إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية
عن الكدورات الدائمة أبد الآباد (١) ، ولا مطمع فى ذلك إلا
فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ،
فرب أكلة تمنع أكالات .

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء
البارد ثلاثة أيام ، ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن
شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً ، امتنع عليه شربه طوال العمر ،
فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة : أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم
طول العمر ، أم يقضى شهوته فى الحال خوفاً من ألم المخالفة
ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة
عشرون يوم ؟ .

جميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل
عذاب أهل النار . أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع

(١) تعنى الاستمرار الدائم طول الدهر .

العمر وإن طالت مدته .

وليت شعري : ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة . أو ألم النار في دركات (١) جهنم ؟ . فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ؟

ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمو جلى .

أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما اللحمو الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعونها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك فى جميع ذلك بجميع الحيل .

(١) فالدرجات لأهل الجنات وهى لا على والدركات لأهل النار وهى للأسفل .

وبهذا الجهل تستحقين لقب حماقة من رسول الله ﷺ
حيث قال : « الكيس (١) من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ،
والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » (٢) .

ويحك يا نفس !

لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ،
فانظري لنفسك . فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك .
فالأنفاس معدودة . فإذا مضى منك نفس ، فقد ذهب بعضك
فاغتنى الصحة قبل السقم . والفراغ قبل الشغل . والغنى
قبل الفقر . والشباب قبل الهرم . والحياة قبل الموت . واستعدى
للآخرة على قدر بقائك فيها .

(١) العاقل وإدانة النفس : اتهامها بالتقصير لتزداد من فعل الخيرات .

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الترمذى (٢٤٦١) وأحمد (١٢٤/٤)

والطبرى فى الكبير (٣٣٨/٧) والبيهقى (٣٦٩/٣) والبغوى

فى شرح السنة (٣٠٩/١٤) من حديث شداد بن أوس

-رضى الله - مرفوعاً .

يا نفس . أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته . فتجمعين له
القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك
على فضل الله وكرمه . حتى يدفع عنك البرد من غير
جبة ولبد وخطب وغير ذلك ؛ فإنه قادر على ذلك .

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير (١) جهنم أخف برداً وأقصر
مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن
يكون هذا كذلك . أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة
والبرودة .

أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى . هيهات . كما لا يندفع
برد الشتاء إلا بالحجة (٢) والنار ، وسائر الأسباب .

(١) الزمهرير : شدة البرد

(٢) بالحجة والنار : يلبس الثقيل والسملك من الثياب ليتقى بها من البرد
وكذلك بالتدفئة .

فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق
الطاعات . وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن .
ويسر لك أسبابه . لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه .

كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار
وهذاك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر . حتى
تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الحطب
والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك . إذ
خلقه سببا لاستراحتك . فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو
مستغن عنها: وإنما هي طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه
، ومن أساء فعليها ، والله غنى عن العالمين .

ويحك يا نفس ! .

انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا
لكم إلا كنفس واحدة . وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما
أكرم تعودون . وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا
تويلا .

ويحك يا نفس ! .

ما أراك إلا ألقت الدنيا . وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها

وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكددين فى نفسك مودتها .
فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة
وأحوالها ، أفما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ؟ .
أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ،
فمد نظره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر
لا محالة إلى مفارقتة . أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟ .
أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك . وما لك فيها إلا
مجاز (١) ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ،
ولذلك قال سيد البشر ﷺ : « إن روح القدس (٢) نفث فى
روعى : أحب من أحببت فإنك مفارقة ، واعمل ما شئت فإنك
مجزى به . وعش ما شئت فإنك ميت » (٣) .

(١) أى عبور الطريق وقطعه

(٢) هو جبريل عليه السلام ونفث : أى أوحى فى نفسى .

(٣) إسناده ضعيف :

قال العراقى فى تعليقة على الإحياء (٨٨/١) رواه الشيرازى فى
الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر
والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس ! .

أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري ؟ .

أو ماتنظرين إلى الذين مضوا : كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ .

أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ؟ .

يبنى كل واحد قصرًا مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض .

فهل فى الدنيا حمق وانتكاس (١) أعظم من هذا؟

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً أما تستحين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟ .

(١) وهل فى الدنيا إلا خيبة وخسران لمن لم يتخذ الإسلام منهجاً

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ،
وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء
والعلماء والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكيين (١) على الدنيا ،
واقتردي من الفريقين بمن هو أعقل عندك ، إن كنت تعتقدين فى
نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ! ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر
طغيانك ! عجباً لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة
الجلية ؟ .

ولعلك يا نفس أسنكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ،
أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض
الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك
وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا
أحد من على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى
زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك
الذين كانوا من قبلك :

(١) غير المفارقين لها .

فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (١) ؟.

فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي ؟ ! هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض . سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب . كيف ويأبى إيدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك (٢) ، بل أمر دارك ، فضلاً عن محلتك . ؟

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها . وتنزهاً عن كثرة عنائها ، وتوقياً من سرعة فنائها ؟ . أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ . وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ؟ فأف لدينا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! .

فما أجهلك ، وأخس همتك وأسقط رأيك ، إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، في

(١) فليس لهم ذكر ولا سيرة والركز : الصوت الخفى .

(٢) المحلة : المنزل .

جوار رب العالمين ، أبدأ الآبدین ، لتكونی فی صف النعال من جملة الحمقى الجاهلین آیاما قلائل ، فیا حسرة علیک إن خسرت الدنيا والدين ! .

فبادری ویحک یا نفس . فقد أشرفت علی الهلاك .
واقترب الموت ، وورد النذیر ، فمن ذا یصلی عنک بعد الموت ؟ ومن ذا یصوم عنک بعد الموت ؟ .

ویحک یا نفس ، مالک إلا أيام معدودة هی بضاعتک ، إن اتجرت فیها وقد ضیعت أكثرها ، فلو بکیت بقية عمرك علی ما ضیعت منها ، لکنت مقصرة فی حق نفسك ، فكیف إذا ضیعت البقية ، وأصررت علی عادتك ؟ .

أما تعلمین یا نفس أن الموت موعدهک ، والقبر بیتک ، والتراب فراشک ، والدود أنیسک ، والفرع الأكبر (١) بین یدیک ؟ .

أما علمت یا نفس أن عسکر الموتی عندک علی باب البلد ینتظرونک ، وقد آلوا (٢) علی أنفسهم کلهم بالإیمان المغلظة

(١) الفرع الأكبر : يوم النشور يوم البعث والعرض الأكبر

(٢) أقسموا وحلفوا .

أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم ؟ .

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيتهن ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟ .

ويحك يا نفس ! .

أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم ؟ أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . ،
ويحك .

أهو أهون الناظرين عليك ؟ . أأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالردائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ . أما تعلمين يا نفس أن المذنب أثن من العذرة (١) وأن العذرة لا تطهر غيرها ، فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ .

ويحك يا نفس ، قد جعلت نفسك حماراً لإبليس ، يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا

(١) ما يخرج من دبر الإنسان .

تعجبين بعملك، وفيه من الآفات مالونجوت منه رأساً برأس (١) لكان الربح في يدك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة ، بعد أن عبده مائتى ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة ، مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس ، ما أغدرك . ويحك يا نفس ، ما أوقحك ، ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المعاصي ! . ويحك كم تعقدين فتنقضين (٢) ، ويحك ، كم تعهدين فتغدرين .

ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنيالك كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا : جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً (٣) وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

ويحك يا نفس ، أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ . هيهات

(١) الكفتان متساويتان لالك ولا عليك .

(٢) تؤكدين العهد والميثاق ثم لا تفين من ذلك .

(٣) عمارات شاهقة .

هيهات، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي (١) ، أن تبدو رسل ربك منحدره إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه . وبشرى بالعذاب ؟ . فهل ينفعك حينئذ الندم . أو يقبل منك الحزن . أو يرحم منك البكاء ؟ .

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفتنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ .

ويحك يا نفس ! تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك ، فترين تحسرهم عند

(١) وهو كناية عن خروج الروح .

الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك .

فاحذري أيتها النفس المسكينة يوماً إلى الله فيه على نفسه
أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه ، حتى يسأله عن عمله
دقيقه وجليله ، سره وعلايته . فانظري يا نفس بأى بدن تقفين
أمام الله وبأى لسان تجيبين . وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب
صواباً ، واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال ، وفي
دار زوال لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم
وخلود .

اعلمي قبل أن لا تعلمي ، واخرجي من الدنيا اختياراً
خروج الأحرار ، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا
تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ،
ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك
ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب
الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا إعتباراً ، وسعيك لها
اضطراباً (١) ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة

(١) أى يكون السعى قدر الحاجة والكفاف .

ابتداراً (١) ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويتغنى
الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى .
واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ،
ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يسار
به وإن لم يسر .

(١) مسارعاً ومسابقا .

العلاج

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللفظ بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له .

فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ، والقنو كبيرة من الكبائر ، نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طريق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ؟

وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ؟

فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة (١) ، فقد
بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء ،
واستغشى بأرحم الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ،
وأدمنى الاستغاثاة ، ولا تملئ طول الشكاية ، لعله أن يرحم
ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد
تفاقت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ،
وراحت عنك العلل . فلا مذنب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا
مهرب ، ولا ملجأ ولا منجى إلا إلى مولاك فافزعى إليه
بالتضرع ، واخشع فى تضرعك على قدر عظم جهلك
وكثرة ذنوبك ، لانه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب
المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم
مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ،
وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجح
فيك العظات ، ولم يكسر كالتوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ،

(١) نزول الدمع : دليل على التأثر والرحمة

والمستغاث به بر رؤوف ، والرحمة واسعة ،
والكرم فائض والعفو شامل .

وقولى : يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حلیم
يا عظیم يا كريم ، أنا المذنب المصر ، أنا الجرىء الذى لا أقلع ،
أنا المتماذى الذى لا أستحي ، هذا مقام المتضرع المسكين ،
والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق ، فعجل
إغاثتى وفرجى ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك
ومغفرتك ، وارزقنى قوة عصمتك ، يا أرحم الراحمين « اهـ .

دار النضر للطباعة والإدارة
٢ - شارع فنشاحلى شعبة القسامرة
الرقم البريدى - ١١٢٣١

كَذَا الصَّحَابَةُ لِلنَّبِيِّ

بَطْنُ طَا

للنشر. والتحقيق. والنويع

ت: ٣٣١٥٨٧ - ص. ب ٤٧٧

شارع المديرية

لا كس : ٠٤٠/٣٣٨٧٦٩

To: www.al-mostafa.com